يا نساء المؤمنين

أنفقن

بقلم الشيخ/



حفظه الله



مؤسسة المأسدة الإعلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة المأسدة الإعلامية

تقدم

المقالة المحرّضة:

"يا نساء المؤمنين .. أنفقن"

للشيخ أبي سعد العاملي - حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

• قبل البدء

لا ينبغي أن تُفهم هذه المقالة على أنَّها تنقيص للمرأة المسلمة أو اتهامها بالتقصير في مجال نصرة الدين وبخاصة في مجال الإنفاق، فهذا الأمر غير وارد لأنَّ الحقيقة عكس ذلك تمامًا، ذلك أنَّ المرأة المسلمة هي التي تتحمَّل القسط الأكبر من التضحيَّات وتعيش الجزء الأوفى من الابتلاء والتمحيص مقارنة مع ما يلاقيه الرجل في نفس الميدان.

فالمرأة تتحمل أكثر من الرجل في الكثير من المجالات، حيث أنَّه يقع على عاتقها الجزء الأكبر من مسئولية البيت وتنشئة الأجيال والتوجيه، كما أنَّها تعتبر قطب الرحى في الأسرة وحتى في العائلة ككل، وفي كل المناطق الساخنة ومواقع التدافع بيننا وبين أعدائنا نجد المرأة في الواجهة وهي التي تقدِّم أكبر التضحيات، فتقدِّم نفسها وزوجها وأباها وأخاها وأبناءها فداءً لله عز وجل ولا يوقفها كل هذا عن مواصلة المعركة والقيام بالواجب خير قيام.

ففي ساحات الجهاد القائمة والمفتوحة كانت المرأة في الصفوف الأولى بل في الواجهة، فهي حاضرة في كل المواقع وفي كل المراحل، ابتداءً من التحريض والتربية والتكوين، ثم الإعداد بما فيه التمويل، وفي السجون والمعتقلات لا زالت تقدِّم أغلى ما تملك إلى جانب حرِّيَّتها وهو عرضها الذي يدنِّسه الصليبيون والروافض والنصيريُّون والمرتدون بشكل عام، فهل بعد كل هذه التضحيات يأتي آتٍ ويتَّهم المرأة المسلمة بالتقصير؟! لا والله، بل نحن المقصرون، ونحن المتقاعسون، ونحن من ينبغي أن نتعلَّم من هذه المرأة المجاهدة الصابرة كل معاني الثبات والتضحية والاستقامة على أمر الله عز وجل في زمنٍ قلَّ فيه النصير لهذا الدين، وبات أغلب رجال هذه الأمة يبحثون عن أعذارٍ فيمارسون أعمالاً لا تسمن ولا تغني من جوع لإسقاط الواجب الملقى على عاتقهم، فسلكوا سبل الشيطان المتنوعة، وملأوا الدنيا صراخًا وعويلاً وشعاراتٍ زائفة، أصبغوها بلون الإسلام وهو منها براء، وتركوا هذه المرأة المسلمة المضطهدة تعاني وحدها وتضحِّي بأغلى ما تملك ولا من يعينها، بل رأينا من هؤلاء الأدعياء من يتشفَّى بها ويُلقِي عليها اللوم أن لماذا خرجت للدفاع عن دينها، وأنَّ مكانها الصحيح هو بيتها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل على عبيد الديموقراطية واللعبة السياسية.

• تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

فإنَّه لا يخفى على كل ذي لبٍّ مدى المآسي التي تعيشها الأمة وما آلت إليه أوضاعها بسبب غياب شرع الله تعالى عن الحكم وتسلط أعداء الله على خيرات الأمة بطرق مباشرة وغير مباشرة، أشدُّها على النفس تلك التي يستعملونها للإفساد في الأرض وطمس معالم ديننا وإفساد أخلاقنا تحت ذرائع عدة.

ثم تلك الحملات المتواصلة والمسعورة على مطاردة ومحاصرة ومحاربة الذين يأمرون بالقسط من الناس من علمائنا المخلصين والدعاة الصالحين، كل هذا يتم بمساعدة ومباركة هذه الأنظمة المرتدة الجاثمة على صدور المسلمين في كل قطر من أقطار عالمنا الإسلامي المحتل.

وأخطر الفئات المستهدفة في هذه الحملة هي الأسرة المسلمة من أجل تفكيكها وإبعادها عن مهمَّتها الأصلية والحسَّاسة في مجتمعاتنا المحافِظة، وعلى رأس هذه المؤسسة تبرز المرأة المسلمة كرأس الحربة لها، والهدف الأكبر لأعدائنا، لأنَّهم علموا أن مكانة المرأة المسلمة لا بدَّ أن تُميَّع وتُزعزع وتُقتلع من جذورها لتصبح معلَّقة وتائهة لا تلوي على شيء، فاقدة للبوصلة التي توجِّهها الوجهة الصحيحة، وللعرين والحصن الحصين الذي يحميها من الضياع والتيه، فكانت هذه الحملات المنظَّمة والمكثفة من قبل أعداء الله –على جميع الأصعدة– مستهدفة هذه النواة الخيِّرة والبذرة الطيبة من أمتنا.

لا يختلف اثنان على أن معركة الإسلام مع خصومه اليوم قد أخذت أشكالاً متعددة، وأنها قد غطت جوانب كثيرة جدًا لا يسع المسلم الصادق سوى البحث عن موضع قدم له في إحدى ساحاتها وثغورها العديدة، ليقوم بما هو أهلٌ له من واجب الدعم والمشاركة الفعلية بما يستطيع، نصرةً لدينه والدفاع عن الحق الذي يحمله، على الأقل بنفس العزيمة والإرادة التي يقوم بها أعداؤه لنصرة باطلهم.

- أهداف الجهاد والمجاهدين

الجهاد باب فرضه الله تعالى لحماية دينه ونشره بين الناس، ثم هو وسيلة للدعوة لأنَّه يزيح العقبات التي تعترض طريق الدعوة – ماديةً كانت أم معنوية – ونجد هذا في قوله تعالى:

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الأنفال:٣٩]، فإذا كان بعض الدين لغير الله وجب القتال حتى يكون كله لله.

وأهداف المجاهدين هي الدفاع عن حرمات الله ثم حرمات المسلمين والمستضعفين منهم {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا}[النساء:٧٥].

وصيانة حرمات المسلمين وأعراضهم من أولى أولويات المجاهدين، والنساء يأتين على رأس القائمة التي يسعى المجاهدون إلى حمايتهنّ وصيانتهنّ ودفع الأضرار عنهنّ؛ لأنَّهم يعلمون قيمة المرأة وكونها درَّة لا بدَّ أن تُصان والنواة الحقيقية لكل بيت في مجتمعاتنا المسلمة.

إنَّ المرأة المسلمة تعتبر رمز الكرامة والعفَّة ومصدر الحنان والاستقرار للنشء المسلم، والمدرسة التي تخرج الأجيال الصالحة والجنود الأكفاء الذين يتحمَّلون مسئولياتهم لحماية دينهم وأمتهم، وقد يكون هذا من حكمة عدم فرض الجهاد بمفهوم القتال عليها لتبقى حافظة للأجيال ولامتداد دور الأسرة المسلمة في حال غياب الأب شهادةً أو أسرًا.

فقط لكي تعلم المرأة المسلمة أنَّ لها نصيب الأسد في غايات الجهاد الإسلامي، ومن هنا ينبغي عليها أن تساهم بكل ما أوتيت من ملكات معنوية ووسائل مادية للمساهمة في هذا المشروع جنبًا إلى جنب مع أخيها الرجل.

- **ثغور متعددة وغاية واحدة**

لقد أخذ الجهاد أشكالاً متعددة وغطى جوانب شتى، وكل مرحلة من مراحله تتطلَّب تكاليف مادية مستمرة، فلا يمكن أن يتحرك المجاهد بدون هذا السند المادي.

ففي مرحلة الإعداد مثلاً يكون المجاهدون في حالة تفرُّغ وتركيز على مسائل الإعداد والاستعداد للمعارك ومن غير الطبيعي أن تطلب من هؤلاء المجاهدين تدبير الإمكانيات المادية لتغطية هذه التحركات، بل لا بدَّ من وجود فِرَق خاصة مختصَّة في جلب الأموال.

ومصادر التمويل لا بدَّ أن تكون متعددة وغير مترابطة فيما بينها لضمان الاستمرارية، كما أنَّه لا بدَّ من وجود سرية وكتمان في عملية التمويل، لأنَّ العدو يسعى دومًا إلى كشف ظهر التجمعات الجهادية لكسره أو حصارها ليشلَّ حركتها لكي تظلَّ ضعيفة وحبيسة العوز والحاجة.

ومن أفضل طرق التمويل هو ما يجود عليه المسلمون أنفسهم على هذا الدين، فهذه الوسيلة لا تنقطع ولا تنفد ما دام المسلم ملتزم بدينه ومقتنع بما فرضه الله عليه من فريضة النفقة في سبيل الله، بخلاف الاعتماد على التمويل الخارجي الذي يكون دومًا معرَّضًا لشروط وضغوطات متعددة فلا يكون مؤتمنًا ولا مضمون العواقب كما هو شأن التمويل الداخلي.

وهذه الثغور ينبغي أن يقف عليها المسلمون كل حسب تخصصه وقدرته وهمته، فلا ينبغي أن تبقى واحدة منها شاغرة وإلا تحوَّلت إلى ثغرة يدخل منها العدو إلى عقر دار المؤمنين فيكون ذلك بداية الهزيمة وذهاب الريح.

فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ولا بدَّ أن تتكامل أدوارهم في هذا السبيل، ومن ينكث فإنما ينكث عن نفسه وليعلم أنَّه سبب في كل انتكاسة ستحدث للصف المسلم، فتعدد الثغور ظاهرة طيِّبة وحسنة تتيح للمسلم والمسلمة أن يختار ما يناسبه من عمل وما يسَّره الله له.

- **أهمية دور المرأة في ساحات الجهاد**

ليس هناك ثمَّة شكٌّ في وجوب مشاركة المرأة إلى جانب أخيها في شتى مجالات الدعوة والإعداد والجهاد، فقد تجاوزنا هذه الشبهة التي ينشرها أعداؤنا لإضعاف الصفِّ المسلم عبر تهميش المرأة المسلمة وإبعادها عن واجباتها الشرعية، وكأنَّها عنصر خلقه الله لمجرد المتعة أو مجرد متاع يضعه الرجل في البيت مثل بقيَّة الأمتعة، في الوقت الذي يستغل أعداؤنا هذه المرأة بالذات كسلعةٍ رائجة أو طُعْمٍ لترويج بضاعتهم في مختلف المجالات.

فليس هناك مذهب أو دين أنصف المرأة ووضعها في مكانها الصحيح واللائق مثلما فعل الإسلام، فكان هناك تساوي وعدل في الحقوق والواجبات بينها وبين الرجل، كل في مجاله ووفق الفطرة التي فطرهما الله عليها، لا إفراط ولا تفريط، صنع الله {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ}[الملك:١٤].

فبقدر ما منح الإسلام المرأة من مكانة سامية وحقوق كثيرة، بقدر ما فرض عليها من واجبات تصون بها كرامتها وتكون عونًا لأخيها الرجل لتكتمل مهمَّتهما ويشكلا درعًا واقيًا لهذا الدين، وللمجتمع المسلم بصفة خاصة؛ ليكون صالحًا فتسود فيه الظروف المناسبة لنشر تعاليم الإسلام، وحمل أمانة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة: ٧١].

• أهمية النفقة بصفة خاصة

لا معنى لجهاد بدون مال، بل لا جهاد أصلاً إذا لم تكن هناك أموال تغطِّي حاجيَّاته المختلفة، ولا غرابة أن نجد الجهاد بالمال مقدَّم على الجهاد بالنفس في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الصف:١٠-١١]**، وقوله عز من قائل: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [التوبة:٤١]**، وغيرها من آيات الجهاد، وقد ورد فيها الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس.**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن عجز عن الجهاد ببدنه وقدر على الجهاد بماله وجب عليه الجهاد بماله، وهو نص أحمد في رواية أبي الحكم، وهو الذي قطع به القاضي في أحكام القرآن في سورة براءة عند قوله: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}، فيجب على الموسرين النفقة في سبيل الله، وعلى هذا فيجب على النساء الجهاد في أموالهن إن كان فيها فضل، وكذلك في أموال الصغار وإذا احتيج إليها كما تجب النفقات والزكاة، وينبغي أن يكون محل الروايتين في واجب الكفاية، فأمَّا إذا هجم العدو فلا يبقى للخلاف وجه، فإن دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعًا. قال أبو العباس: سئلت عمن عليه دين وله ما يوفيه وقد تعين الجهاد فقلت من الواجبات ما يُقدَّم على وفاء الدين كنفقة النفس والزوجة والولد الفقير، ومنها ما يُقدَّم وفاء الدين عليه كالعبادات من الحج والكفَّارات، ومنها ما يُقدَّم عليه إلا إذا طولب به كصدقة الفطر، فإن كان الجهاد المتعيَّن لدفع الضرر كما إذا حضره العدو أو حضر الصف قُدِّم على وفاء الدين كالنفقة وأولى، وإن كان استنفار فقضاء الدين أولى؛ إذ الإمام لا ينبغي له استنفار المدين مع الاستغناء عنه، ولذلك قلت: لو ضاق المال عن إطعام جياع والجهاد الذي يتضرر بتركه قدَّمنا الجهاد وإن مات الجياع كما في مسألة التترس وأولى، فإن هناك نقتلهم بفعلنا وهنا يموتون بفعل الله. وقلت أيضًا: إذا كان الغرماء يجاهدون بالمال الذي يستوفونه فالواجب وفاؤهم لتحصيل المصلحتين: الوفاء والجهاد. ونصوص الإمام أحمد توافق ما كتبته وقد ذكرها الخلال"[1].

---

(١) الاختيارات الفقهية – شيخ الإسلام ابن تيمية.

• النفقة في العسر كما في اليسر

والنفقة إحدى أهم وأوسع أبواب العمل الصالح والمشاركة الفعلية في هذه الحرب المستعرة، فينبغي علينا أن ننظر إلى مفهوم النفقة بشموليته، فهو لا يتعلَّق فقط بالمال –كما قد يتبادر إلى الأذهان– بل لا بدَّ من إنفاق كل ما يملك المسلم في سبيل الله، أو بالتعبير القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[البقرة:٢٥٤].

فأنت مُطالب أيها المسلم ويا أيتها المسلمة بأن تُنفق كل ما وهبك الله إياه من رزق ولا تبخل به إن كنت صادقًا في انتمائك لهذا الدين، لأنَّك إنما تبخل على نفسك، وإذا أنفقت فستجد ذلك عند الله، فلِمَ البخل إذن؟

هذا فضلاً عن أنَّ النفقة تُنجي صاحبها من التهلكة بدليل قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ}[البقرة:١٩٥].

وهناك صور أخرى فريدة من نفقة الأموال والأنفس في الغزوات تعجُّ بها كتب السيرة، لولا الخوف من الإطالة لذكرت العشرات منها، وقد كان الصحابي يأتي ليجاهد فلا يجد ما ينفقه في سبيل الله فيرجع باكيًا متحسِّرًا ألَّا يستطيع الخروج مع الجيش، {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التوبة:٩٢].

فالنفقة في العُسر تعتبر قمة لمفهوم {حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}، وحينما علم الله صدق المنفقين وأنهم قد أعطوا لربهم أعزَّ ما يملكونه وفي أحلك الظروف والأوقات فإنَّ الله تعالى يكافئهم بما هو أعزُّ وأغلى {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ} [الصف: ١٢-١٣].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد فكلَّمهنّ في الصدقة، فأخذن ينزعن الفتخ والقرط والعقود والأطواق والخواتيم والخلاخيل ويلقينها في ثوب بلال –رضي الله عنه–، وكان بلال قد بسط ثوبه ليضع فيه النساء صدقاتهن).

وبذلك رقأت عبرة اليتيم، وبردت لوعة المسكين، وكذلك فعل النساء حين نزلت آية الصدقة: {إِنَّ المُصَّدِّقِينَ وَالمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[الحديد:١٨].

ونقول اليوم لنساء المؤمنين، إنَّ الضرورة مُلِحَّة، والحاجة قائمة، وكثير من المسلمين قد لاقوا ما ترينَّه بأمِّ أعينكنّ وليس فقط سماعًا بآذانكنّ، فأينما ترمين بصركنّ تجدنّ مقاتلين بحاجة إلى سلاح وعتاد، ومرضى وجرحى بحاجة إلى دواء، ونساء وأطفال بحاجة إلى كساء، وجوعى بحاجة إلى غذاء، وكل هذا يحتاج منكنّ إلى بسط يد العون، وفكِّ الكف بالصدقة والنفقة، فلا يحلو لنا

عيش ونحن نرى ما نرى من مآسي ومشاهد تشيب لها الولدان، فهل تطيب أنفسكنّ بأن تتزينّ بهذه الحُلِيّ وكل هؤلاء لا يجدون ما يسدون به حوائجهم؟!

وما قيمة ذهب وفضة نتزين بهما في المناسبات مرة أو مرتين في السنة ثم نكنزه والأمة تُذبح ودين الله محارب، وصرخات إخوانكن وأخواتكن تخرج من أقبية السجون ولا من يستجيب ولو بشق تمرة!

إنَّ أموالنا وحليّنا علينا حرام ما دام هناك في الأمة من يستصرخ ويستغيث ويعاني، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به"[٢]، وقوله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه"[٣].

أقول: فإذا كان كل هذا الوعيد في حقِّ من لا يُطعم جاره وهو يعلم، فكيف يا ترى يكون وعيد ومصير من يملك المال الوافر ويدَّخره أو يكنزه وهو يعلم أنَّه يمكن أن ينقذ حياة أرواح مسلمة أو يدفع عنها الخطر، أو يساهم بفك أسير أو أسيرة من أسرى المسلمين، وكل هذا حاصل لو صرفنا أموالنا في أبوابها الصحيحة والمطلوبة.

- **نماذج من نفقة نساء السلف في سبيل الله**

من بيت النبوة تبرز أمّنا خديجة –رضي الله عنها– كأول نموذج ومثل أعلى في هذا المجال، فهي المسلمة الأولى والمنفقة الأولى في طريق الدعوة، إذ كانت تمثِّل السند القوي المادي والمعنوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بل للدعوة كلها، خاصَّة في مراحلها الأولى التي كانت تتَّسم بالضعف وإجماع الكفار على حصارها واستئصال شأفتها في المهد قبل أن يستفحل أمرها.

وفي أوقات الشدَّة تكون للتضحية قيمتها الكبرى والمتميزة، كما يكون لها القبول عند الله عز وجل لأنَّها من أصدق الأعمال وأخلصها.

وهكذا كانت السيدة خديجة –رضي الله عنها– المموِّلة الرئيسية للدعوة الإسلامية فكانت تنفق أموالها الكثيرة لنصرة الإسلام وتغطية النفقات المختلفة التي تحتاجها الدعوة وبخاصة خلال فترة الحصار العام الذي دام ثلاث سنوات في شِعب أبي طالب، وفي عامه الأخير توفيت أمّنا خديجة –رضي الله عنها– متأثِّرة بالآثار العصبية لذلك الحصار، وقد بشَّرها رب العزة قبل موتها بما أعدَّ الله لها في الجنة، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: "أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السّلاَمَ مِنْ رَبّهَا عَزّ وَجَلّ، وَمِنّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ".

---

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه الذهبي في التلخيص والألباني في صحيح الأدب المفرد.

وعن عبد الله بن جعفر –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُمِرْتُ أن أُبَشِّرَ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنها ببيتٍ في الجنةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ".

قال السهيليُّ: النكتة في قوله: "من قصب" ولم يقل من لؤلؤ أن في لفظ القصب مناسبة لكونها حازت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان.

يعتبر بيت أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– بمثابة مدرسة خاصة في البذل والإنفاق، فالأب هو من هو في الإنفاق في سبيل الله ونصرة الدعوة الإسلامية، وكذلك كانت ابنتيه أم المؤمنين السيدة عائشة –رضي الله عنها– وأختها السيدة أسماء –رضي الله عنها–.

فأم المؤمنين السيدة عائشة –رضي الله عنها– من فرط حبها في التصدق كانت تعطِّر الصدقة –أي تعطِّر الدنانير والدراهم المتصدَّق بها بالمسك– فتُسأل عن ذلك فتجيب بأنَّ تلك الصدقة تقع بين يدي الله قبل أن تقع في يد الفقير؛ وأنا أعطِّرها لله جل وعلا.

وهذا عبد الله بن الزبير بن العوام –رضي الله عنهما– ابن السيدة أسماء –رضي الله عنها– والذي يقول فيها: "ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف أمَّا عائشة فكانت تجمع الشيء حتى إذا اجتمع عندها قسمت؛ وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئًا لغد" رواه البخاري.

أما السيدة أسماء –رضي الله عنها– فعندما رغبت في تحصيل أجر الصدقة ولم يكن لديها ما تتصدَّق به إلا شيئًا من قوت بيتها، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فعنها–رضي الله عنها– قالت: قلت: يا رسول الله، ما لي مالٌ إلا ما أدخل عليَّ الزبير فأتصدق؟ قال: "تصدقي ولا توعي فيوعى عليك".

أما عن التوجيه النبوي التربوي اليقيني من رسول الله صلى الله عليه وسلم للسيدة أسماء –رضي الله عنها– والذي يعلِّم الأمة اليقين فيما عند الله تعالى من رزق؛ فتُحدِّث –رضي الله عنها– عن نفسها فتقول: مرَّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحصي شيئًا وأكيله قال: "يا أسماء، لا تحصي فيحصي الله عليك" قالت: فما أحصيت شيئًا بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندي ولا دخل علي، وما نفد عندي من رزق الله إلا أخلفه الله عز وجل. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فما نقص مال عبد من صدقة.

إليكن منهج السيدة عائشة –رضي الله عنها– في البذل والإنفاق السخي ومنها هذه المواقف البذلية فعن عطاء قال: بعث معاوية إلى عائشة بطوق من ذهب فيه جواهر قوام مائة ألف فقسمته بين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن أم ذرة –وكانت تغشى عائشة رضي الله عنها– قالت بعث إليها ابن الزبير بمال في غرارتين قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق وهي يومئذٍ صائمة فجلست تقسمه بين الناس فأمست وما عندها من ذلك درهم؛ فلما أمست قالت: يا جارية هلمي

فطري؛ فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم ذرة أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت لها: لا تعنفيني لو كنت ذكرتني لفعلت.

وعن عروة قال: لقد رأيت عائشة تقسم سبعين ألفًا وهي ترقع درعها.

وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش –رضي الله عنها– بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم امرأةً صناعًا، وكانت تعمل بيدها، وتجمع المال من هذه الصنعة التي كانت تعملها، ولعلها كانت تغزل أو تفعل شيئًا من هذا القبيل، فكانت تجمع المال ثم تتصدَّق به كله في سبيل الله تبارك وتعالى، وكانت صالحة صوَّامة قوَّامة بارَّة، وكان يقال لها: أم المساكين.

وفيها قالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– حين توفيت: لقد ذهبت حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل. كانت زينب مفزع اليتامى والأرامل، يفزعون إليها حتى تفرج كرباتهم –رضي الله عنها–.

وهذه أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية كانت –أيضًا– تُدعى أم المساكين، وهي غير زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت كثيرة المعروف، ولذلك كانت تُلقَّب بأم المساكين.

وعن محمد بن سعد قال: كان عطاء زينب اثني عشر ألف درهم –هكذا كانت تعطى في كل سنة– فحُمِل إليها فقسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة حتى أتت عليه، فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام، وقال: قد بلغني ما فرَّقت، فأرسل إليها بألف درهم لتنفقها على نفسها، فسلكت بها طريق ذلك المال.

وروي عنها أنها حين حضرتها الوفاة قالت: إني قد أعددت كفني، ولعل عمر سيبعث إلي بكفن، فإن بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما، فإن استطعتم –إذا أبليتموني– أن تصدقوا بحقوتي فافعلوا.

وزينب –رضي الله عنها– هي التي كان يقول فيها عليه الصلاة والسلام: (أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا) يعني أن أول أمهات المؤمنين ستموت بعده صلى الله عليه وسلم أطولهن يدًا، ففهمنها على ظاهرها، فكانت أمهات المؤمنين يقسن أيديهن على جدار، فترفع كل واحدة منهن يديها حتى يقسنَ وينظرن من منهن أطول يدًا؟ فبعد ذلك حينما توفيت زينب فهمن أن مقصود الرسول عليه الصلاة والسلام كان طول يدها في المعروف وأسرعهن صدقة.

وهذه السيدة الشريفة العفيفة التقية النقية سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهما– فكانت شهمة سخية كريمة، وكانت تجود بكل ما لديها من مال، فإن لم يكن مال فبشيء من الحلي الذي تلبسه.

أما السيدة المكرمة الصالحة نفيسة فهي بنت الحسن بن زيد بن السيد سبط النبي صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي العلوية الحسنية –رضي الله عنها–، وهي السيدة نفيسة المدفونة في القاهرة، وللأسف أنه يفعل بقبرها من الشرك ما الله ورسوله والمؤمنون منه براء، وهي –أيضًا– بريئة منه، كانت –رحمها الله وأكرمها– من الصالحات العابدات، زاهدة تقية نقية، تقوم الليل وتصوم النهار، وتُكثر البكاء من خشية الله عز وجل، حتى قيل لها: ترفقي بنفسك. لكثرة ما رأوا منها، فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا يقطعها إلا الفائزون؟! وقد حجَّت ثلاثين حجة، وكانت تحفظ القرآن وتفسيره.

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله تعالى– بعد أن حكى أنها دخلت مصر مع زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق فأقامت بها، يقول ابن كثير : لما دخلت مع زوجها أقامت بها، وكانت ذات مال، فأحسنت إلى الناس والجذامى والزمنى والمرضى وعموم الناس، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير.

وهذه أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز، وماذا تتوقع من شقيقة عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد –رحمهما الله تعالى–؟! كانت مضرب المثل في الكرم والجود، كانت تقول: لكل قوم لهنة –واللهنة: الشهوة أو الرغبة في شيء– ولهنتي في الإعطاء، أي: شهوتها في الإعطاء والنفقة في سبيل الله، كانت تعتق كل يوم جمعة رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله عز وجل –تشتري فرسًا ليجاهد عليه في سبيل الله–، وتقول: أف للبخل، لو كان قميصًا لم ألبسه، ولو كان طريقًا لم أسلكه.

- إنفاق الولد في سبيل الله

ليست الصورة دومًا أن تدفع ولدك إلى مواقع القتال والجهاد مباشرة هكذا دون مقدمات، بل لا بدَّ من التعوُّد أولاً على تهذيبه وتكوينه وإعداده الإعداد اللازم ليكون مجاهدًا بحق.

فتكون الخطوات الأولى هو أن تُعَوِّده منذ الصغر وتزرع فيه صفات المجاهد كالصبر والتقشف والشجاعة والكرم والبذل والعطاء، وإيثار الغير على النفس، وقبل هذا وذاك إيثار دينه وعقيدته على كل ما بين يديه.

هذه التربية صارت نادرة إن لم أقل منعدمة في أوساط أنصار الجهاد أنفسهم فكيف بالعوام يا ترى؟

لذلك وجب على أنصار الجهاد أن يفتحوا هذه البادرة الطيِّبة ويرسِّخوها في محيطهم ليكونوا قدوةً لغيرهم، ولا يحتاجوا بعد هذا إلى كثير حديث لحثِّ الناس عليها.

إنَّ مسألة النهوض بحاجة إلى وقت أطول مما نتصوره، فلا تذهب بنا الأحلام بعيدًا ونتخيل أن التغيير يمكن أن يأتي بعد عشيَّةٍ وضحاها، كما أنه من غير المعقول أن ننتظر تغييرًا بدون رجال، والرجال كما نعلم جميعًا يُستهلكون أثناء عملية التغيير إمَّا بالقتل أو السجن، فلا بدَّ أن نفكِّر في إعداد الصفوف الثانية والثالثة والرابعة التي ستأخذ الراية وتواصل العمل لتحقيق التغيير والنهضة المرتقبة.

والكلام موجَّه أساسًا إلى شقائق الرجال، حفيدات الخنساء وسمية –رضي الله عنهما–، لكي يعطين للأمة وللعالم أجمع أمثلة راقية في التضحية، وقبل ذلك في تربية النشء وإعداد الفوارس والقادة الجدد لهذه الأمة الخاتمة والشاهدة على كل الأمم.

لا بدَّ لأخواتنا أن يُحَوِّلْنَ بيوتهنَّ إلى مدارس لتخريج العلماء والمجاهدين، ويزرعن في نفوس أبنائهنَّ الزاد الروحي والعلمي والأخلاقي ليُعيدوا بدورهم إلى الأذهان تلك النماذج الخالدة من سلفنا الصالح في ميادين العلم والدعوة والجهاد.

على أخواتنا أن يضعن نصب أعينهنّ أنَّ أبناءهنّ يمثلونهنّ في هذه الحرب الدائرة رحاها على أمة الإسلام، فليحرصن على حسن التربية والإعداد، وعلى حسن التلقين والتوجيه، وليكن هؤلاء الأبناء أفضل وسيلة للتقرب إلى الله بالطاعة والانقياد له سبحانه في ميدان النفقة والعطاء.

ولأخواتنا غير المتزوجات أقول: يقع عليكن واجب الدعم والتشجيع لإخوانكنّ، فلا تدرين وَقْعَ ذلك على نفوسهم، فحينما يرى المؤمن أخته تبادر إلى أعمال الخير في ميادين الجهاد المتعددة، فإن ذلك يحفِّزه أيُّما تحفيز ويضعه أمام أمر واقع لا يمكن أن يهرب منه وهو المبادرة إلى المشاركة معها بل وأخذ زمام المبادرة لأنَّه قد يستصغر نفسه ويوبخها أو يعاتبها لأنَّ امرأة سبقته إلى هذه الميادين.

فالذي يهمنا هو المحصلة النهائية التي يتم جنيها في النهاية، والتي تتمثل في عملية النهوض ونفض غبار الكسل والخمول والانغماس في العمل إلى جانب أخواتنا، ويكون التنافس تصاعديًّا في البذل والعطاء، والنفقة في اليسر والعسر {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتُنَافِسُونْ}[المطففين:٢٦].

الحديث هنا عن النساء اللاتي لم يدخلن بعد في المعركة، وما زلن يؤثرن الحياة الدنيا وزينتها وملذاتها وشبهاتها العابرة على مبادئهنّ ودينهنّ وقيمهنّ، في كل بلدان المسلمين، واللاتي ينبغي أن ينهضن ويغيرن وجهة حياتهنّ لعل الله يغفر لهنّ ما مضى وما سلف، ويبدأن حياة جديدة ملؤها العز والكرامة والبحث عن أداء الواجب ابتداءً وبدافع من أنفسهن دون انتظار أمر من أحد.

وإلا فإن الناظر إلى مواقع التدافع في عالمنا الإسلامي يجد نماذج مبهرة ورائعة من النساء اللاتي بلغن القمة في التضحية وضربن أمثلة فريدة وصرن نماذج في الفداء والصبر على المحن لم يسبق لهنّ مثيل.

فكنَّ السابقات إلى الدفع بأولادهن وأزواجهن وإخوانهن إلى ساحات القتال، ووقفن يواصلن دور الموجِّه والناصر بل حتى المموِّل لتكاليف ومتطلبات الجهاد الكثيرة.

هذه هي السمات الأساسية والمطلوب تجسيدها وتوفيرها في المرأة المسلمة المعاصرة في كل مكان، لكي تكون جبهة التدافع قويَّة ومتماسكة، ونقترب أكثر وبخطى أسرع لتحقيق النصر والتمكين لدين ربنا، مثلما ساهمت المرأة المسلمة في عهد سلفنا الصالح إلى جانب أخيها الرجل، فهي سنة جارية وواجب متواصل ومستمر، لا يمكن أن يتم الفتح المبين بغير هذين العنصرين {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة:٧١].

نسأل الله جل وعلا أن يبارك في جهود أخواتنا وأمهاتنا ويتقبل منهنّ خالص أعمالهنّ ويجعلها لهنّ في ميزان حسناتهنّ، ويوفقهنّ للمزيد من الصبر والثبات والعطاء، ويدركن أنَّهنّ لسن فقط قدوةً لأبنائهنّ بل كذلك لإخوانهنّ وآبائهنّ وأزواجهنّ، ويعتقدن يقينًا أن تضحياتهنّ عبارة عن لبنات متينة وثابتة في صرح الإسلام الشامخ، يزداد ثباتًا ورسوخًا بتضحيَّاتهنّ وثباتهنّ، ولن يضيِّع الله أجرهنّ، في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه : أبو سعد العاملي – ربيع الثاني ١٤٣٣ هجري.

=====================

=============

مع تحيات إخوانكم في



مؤسسة المأسدة الإعلامية

(صوت شبكة شموخ الإسلام)